عمل الروح القدس فى الكنيسة الاولى بقوة. وكانت الكنيسة آلة طيعة فى يد الروح، فعمل بها عجبا.. وكان من ثمار عمله صفحة الاستشهاد المشرقة، ولشرح هذا نقتبس من كتاب

"الإستشهاد في المسيحية"

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يؤانس

أسقف الغربية

مع الشـــهدَاء الأبَطــــــال

تقييـــم الاستشهاد فى المسيحية

احتمل الشهداء عذابات مروعة، وميتات متعددة اقتبلوها، بلعداد ضخمة من كل الشعوب والاجناس والطبقات والاعمار من الجنسين، وصاحبت عذابهم واستشهادهم معجزات كان لها تأثير فيمن شاهدوهم... ما هو الحكم على موضوع الاستشهاد فى المسيحية. هل كان نوعا من الجنون والجهل والحماقة، أم كان نوعا من الهروب من الحياة، أو نوعا من الانتحار تحت ظروف قاسية، كما ادعى أعداء المسيحية!

لم يكن هكذا، بل كان ثقل مجد لاولئك- الشهداء، وللسماء نفسها، وللمسيحية أولا وأخيرا... والآن نعرض لكشف هذه النواحى.

الاستشهاد شـــهوة

كان احساس الشهداء والمعترفين بشرف تألمهم من أجل أنبل الاسباب والاهداف- شركة آلام المسيح [1]- دافعا لهم على الاستهانة بالعذاب والموت. بل قد تحول الاستشهاد لديهم الى ما يمكن ان نسميه، شهوة محببة. فكانوا يتقدمون الى الحكام والولاة والقضاة معلنين مسيحيتهم دون أن يبحث عنهم أحد، أو يستدعيهم، أو يقبض عليهم...

فبعد المذبحة المروعة التى عملها أريانوس الوالى فى أخميم، وبعد أن سرى خبرها الى البلاد المجاورة لأخميم، سارع الناس اليها ليلحقوا بركب الشهداء. وكان الآباء والامهات ومعهم أولادهم يتسابقون قائلين فى فرح "نحن ماضون الى ملكوت السموات"...

وقد أتيحت للبعض فرصة الهرب والتخلص من العذابات والموت، ومع ذلك

---

(1) فى 3: 10.

رفضوا، مبرهنين على أشتهائهم الموت حبا فى المسيح، الذى سبقهم فى هذا الطريق... وقصص الشهداء مليئة بأمثال هذه اللفتات.

● فالقديس اندراوس الرسول عندما صلبوه حدثت زلزلة عنيفة فهرب صالبوه. وجاء أحباؤه لينزلوه عن الصليب فرفض، وعانق الصليب معلنا محبته للمسيح المصلوب. وكأنى بالقديس بولس يكشف هذه الشهوة حينما قال "وآخرون عذبوا ولم يقبلوا النجاة، لكى ينالوا قيامة أفضل" (عب 35:11).

● والقديس أغناطيوس الانطاكى الشهيد، الذى حكم عليه بأن يلقى للوحوش فى روما، يكشف لنا- وهو فى طريقه للاستشهاد- عن الشهوة العارمة التى كان يعتمل بها قلبه نحو الاستشهاد، والتى كشفتها رسالته الى أهل رومية.

● والعلامة أوريجينوس، الذى استشهد والده، اشتهى هو أيضا ان يصير شهيدا، بل كانت تعتمل فى نفسه شهوة ملحة لسفك دمه من أجل الهه ويقول يوسابيوس عنه "ولأن غيرته المتأججة المتجاوزة حدود سنه لم تسمح له بالبقاء ساكنا، أرسل لابيه رسالة مشجعة عن الاستشهاد نصحه فيها قائلا: "احذر من أن تغير موقفك بسببنا"[(3)]. وفى يوم ما، تملكت هذه الشهوة على ذلك الجندى المسيحى الصغير، ولم يطق البقاء فى بيته، ولم يذعن لتوسلات أمه، ألا بعد أن أخفت ثيابه، وكان وهو فى الثامنة عشر رشيد أسرته بعد استشهاد والده... وقد سمح الله باستبقائه، من أجل نفعه الجزيل الذى قدمه لكنيسة المسيح.

ولعل كلماته الآتية تكشف عن نظرته للاستشهاد، قال "حينما ننظر الشهداء فى كل مكان متهمين، آتين من كل كنيسة ليقدموا للمحاكمة، نرى فى كل منهم الرب نفسه يحاكم. كيف نشك فى ذلك، حينما نعرف من كلام الرب أنه ليس مجرد أنسان عادى هو الذى يلقى فى السجن، ليحتمل البرد. والجوع والعطش، بل هو نفسه الذى يتألم فى شخص المتألم ومن هنا، فانه حينما يحكم على أى مسيحى لمجرد أنه مسيحى، وليس لسبب آخر، أو جريمة أخرى فان يسوع المسيح هو الذى يحكم عليه فى شخصه. وتبعا لذلك، فانه يحكم عليه فى كل مكان فى الارض، حينما يتألم أناس على اسمه"[(4)]...

هكذا نظر أوريجينوس والمسيحيون جميعا الى الاستشهاد كشركة آلام الرب.

● والقديس الانبا أنطونيوس أب الرهبان، اشتهى أن يصير شهيدا زمان الاستشهاد. ومن أجل تحقيق هذه الشهوة ترك وحدته فى الجبل ونزل الى الاسكندرية وكان يزور المعترفين فى السجن، يعزيهم ويقويهم.. وقيل انه كان يلبس ثيابا بيضاء، ويقف فى الشوارع أثناء موكب الحكام، ملفتا النظر اليه... لكن الله لم يسمح أن يصير شهيدا بسفك دمه، بل بنسكه، وحفظه لكى يكون أبا لكثيرين فى العالم كله، ممن أتبعوا خطواته...

---

(3) يوسابيوس 6: 2
(4) أوريجينوس فى تفسيره لسفر أرميا 8:14

● والقديس بيفام الاوسيمى، سأل عنه أريانوس حال وصوله الى أوسيم أما هو فصلى وقبل باب حجرته، وقال "السلام لك يا قيطونتى، التى تعبدت فيها لله الحى". ثم لبس أفخر الثياب ورشم ذاته بعلامة الصليب، وشد وسطه بمنطقة من ذهب، وركب حصانا وكان يقول "هذا هو يوم عرسى الحقيقى. هذا يوم فرحى وسرورى بلقاء ملكى والهى يسوع". وشجع أمه قائلا لها "يا أمى لا تبكى ولا تحزنى بل أفرحى، فان هذا هو يوم عرسى"... أمر الوالى أن تلقى أمه فى النار مع جمع كبير من المعترفين وودعها قائلا "اذهبى الى النعيم يا أمى لأنه عن قليل الحق بك"... وأخيرا قطعت رأسه بحد السيف فى مدينة قاو[5] فى 27 طوبة.

● والانبا بسادة أسقف أبصاى بجوار اخميم، وهو مساق للاعدام شوهد مرتديا الثياب البيضاء الخاصة بالتقديس، فأقترب منه شاب شماس وسأله لماذا يرتدى الثياب البيضاء التى يرتديها حين ترفع القرابين. فكان جوابه "يا أبنى أنا ذاهب الى حفلة العرس، فكيف لا ألبس الملابس البيضاء"!

● فى شمال أفريقيا- فى الاضطهاد الذى أثاره فالريان (253-260)- قبض على مجموعة من المسيحيين وطرحوا فى السجن، وتحملوا أهواله شهورا طويلة، واعترفوا جميعا بايمانهم المسيحى. واقر لوكيوس، ومونتانس، وجوليان، وفيكتوريكوس، أنهم من رجال الدين. وبناء على ذلك، حكم عليهم بالاعدام فورا، حسب تعليمات الامبراطور.

وكان معهم شاب يدعى فلافيان، اقر انه شماس. غير أن نفرا من اصدقائه وزملائه فى الدراسة من الوثنيين- رغبة فى انقاذه- اكدوا أن أعترافه باطل فأجل الوالى الحكم عليه.

وكان أن أحس بخيبة أمل كبيرة لحرمانه من تلك الرفقة الطيبة... وسيق الباقون الى مكان الاعدام. وقبل أن يعدم مونتانس رفع يديه للصلاة فى صوت مرتفع، سمعه الجميع مسيحيون ووثنيون وقال: "أن فلافيان- الذى عاقته محبة أصدقائه له- سوف يلحق بنا فى اليوم الثالث"... وكعهد لتحقيق صلاته، أمسك بالمنديل الذى كان على وشك أن يعصب به عينيه، وشقه الى نصفين، أعطى أحدهما للمسيحيين الواقفين حوله ليعصب به فلافيان عينيه بعد يومين. وكلف الاخوة أن يحتفظوا له بقطعة من الارض التى سيدفن فيها هو ورفاقه بها حتى لا ينفصل عنهم فى مماته...

وبعد يومين، دعى فلافيان. وكان اليوم الثالث أشبه بيوم البعث بالنسبه اليه. وأيقن أنه يغادر السجن الى غير رجعة. وعاد أصدقاؤه الوثنيون يتوسلون اليه أن يتخلى عن عناده قائلين، أنه من الحمق أن يترجى فرصا غامضة باهتة فى حياة أخرى... فكان رده أنه من الخير له أن يحتفظ بحرية ضميره، مقدما ذاته للذبح، عن أن يعبد حجرا... واقتيد الى مكان الاعدام... وهناك اعتلى مرتفعا من الارض ليخطب الجمع الكبير من

(5) مخطوطة 103 / 480 تاريخ بالمتحف القبطى.

المسيحيين. وفى حديث قصير أعطاهم سلام الشركة مع الشهداء... ثم ترجل الى المكان المحدد, حيث عصب عينيه بنصف منديل مونتانس، وجثا ليصلى. وما أن أتم صلاته حتى تلقى ضربة السيف التى أطاحت برأسه[6].

● وفى قصة استشهاد القديسة أربسيما العذراء ومن معها من العذارى حدث أن الملك تريداته، أرسل بعض جنوده وقتلوا جميع العذارى اللواتى كن مع أربسيما، ما عدا عذراء منهن كانت مريضة راقدة فى كوخ بمفردها... وإذ لم يبصرها أحد، أو يفطن الى موضعها، خشيت أن تفوتها هذه الفرصة، فصاحت نحو الجند، فاتوا وقطعوا رأسها أيضا[7].

● وفى مدة اضطهاد الملك الاريوسى فالنس Valens (364-378), الذى أثاره ضد الارثوذكسيين، حدث أن والى بلاد ما بين النهرين (بالعراق)، نفى الاسقف والكهنة والشمامسة، الذين رفضوا الاشتراك مع الاسقف الجديد الاريوسى.... فكان الشعب يخرج الى البرية ويصلى هناك... فأثار هذا التحدى الملك، وأرسل الى واليه بتشتيت اجتماعاتهم.

ففى ذات صباح خرج الوالى ومعه جنود كثيرون ليرهبوا الشعب وأثناء سيره فى المدينة شاهد امرأة مسكينة تخرج مهرولة من بيتها، وعلى يديها طفل، غير مبالية بغلق باب بيتها، مسرعة فى سيرها ومرت بين الجنود. لفت منظرها ومسلكها الوالى. فأوقفها وسألها:

"الى أين تمضين مسرعة يا امرأة؟".

أجابته: "انى ماضية الى الحقول حيث جميع المؤمنين".

قال لها: "الا تعلمين بأنه قد صدر أمر الملك بقتل جميع من يوجدون هناك؟.

قالت له: "نعم، أعلم ذلك، ولهذا أنا أجد فى السير لأبلغ هذا المكان خوفا من أن تفوتنى فرصة الاستشهاد".

قال: "ولم تأخذين هذا الطفل معك؟".

أجابته: "لكى يشترك معى فى هذا المجد".

وهكذا نرى أن الاستشهاد كان شهوة محببة يتوق اليها المسيحيون، ويرتمون فى احضانه.

<u>الاستشهاد شجاعة</u>

لم يكن الاستشهاد فى المسيحية رعونة، لكنه شجاعة مطلوبة... شجاعة كفضيلة.

---

(6) Mason: The Historic Martyrs of the Primitive Church.

(7) سنكسار 29 توت.

وقد أثرت هذه الشجاعة فى نفس القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد، حينما كان ما يزال وثنيا...

يقول: "فى الوقت الذى كنت استمتع فيه بمبادئ افلاطون. وفى الوقت الذى كنت أستمع فيه الى المصائب التى يكابدها المسيحيون، قلت لنفسى: حيث أنى رأيتهم لا يرهبون الموت، حتى وسط الاخطار التى يعتبرها العالم مرعبة فمن المستحيل أن يكونوا أناسا يعيشون فى الشهوة والجرائم"[8].

وكتب الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجنة، يقول: "لقد انذهلت الجموع المشاهدة للحرب السمائية، الحرب الالهية، الحرب الروحية، معركة يسوع. لقد رأوا خدام يسوع ثابتين فى جرأة، بفكر مستسلم... محتملين سيوف العالم، لكنهم مؤمنون ومحصنون بأسلحة الايمان لقد كان المعذبون أكثر شجاعة من معذبيهم.اذ غلبت الاعضاء المضروبة الممزقة، الآلات التى ضربتها ومزقتها. لقد كانت السياط تكرر الجلدات بكل ما فى قوتها لكنها لم تقدر أن تهزم الايمان غير المنظور. لقد كان الدم يتدفق ليطفئ لهيب الاضطهاد، ويبطل نيران جهنم، ويروى بذار الايمان المسيحى...".

وفى قصص الشهداء التى قدمناها كنماذج، ما يدل على عظم شجاعتهم بصورة يعجز اللسان البشرى عن وصفها، حتى أن يوسابيوس المؤرخ يقول "ولم يكن المرء يتمالك نفسه من الدهشة أمام الثبات الذى لا يقهر، الذى أبداه هؤلاء المباركون (الشهداء)، والجلد الذى لا يتزعزع الذى أظهره أولئك الذين كانت أجسادهم لا تزال غضة فكنت ترى شابا لم يكتمل بعد الثانية والعشرين واقفا غير موثق، باسطا يديه على شكل صليب، بعقل غير متخوف، أو غير مرتعب, فى صلاة حارة لله, دون أن يتراجع عن المكان الذى وقف فيه، بينما تكاد النمور والدببة تلمس جسده, وهى تنفث تهديدا وقتلا. ومع ذلك ظلت أفواهها مغلقة (ولست أدرى كيف كان ذلك)، بقوة الهية لا تدرك، وعادت ثانية الى مكانها"[9].

ويقول المؤرخ المدقق دى برسنسيه De Pressensé "لقد وقفت الشجاعة النبيلة التى تحلى بها المعترفون الحقيقيون بالايمان فى جلالها، ضد أسس الظلام التى للوثنية القاسية والارتداد الجبان. كان الشهداء أبطالا فى الكلام والعمل على السواء. وتكلم صوت الروح القدس القوى على أفواه الشهداء. ولم يعد السمو شيئا غريبا على الكنيسة. اننا نحس ونحن نقرأ. اجابات أكثر المسيحيين تواضعا، أنهم كانوا عظماء فى بساطتهم، وأن الطبيعة البشرية أرتفعت فوق ذاتها، وانها ارتفعت فى القداسة بقوة الايمان فى وجود الخطر"[10].

ولقد كانت شجاعة المعترفين والشهداء المسيحيين، مثالا فريدا. لم يألفه العالم القديم بديكتاتورية حكامه. وكانت اجاباتهم التى قالوها نغمة جديدة على سمع العالم

---

(8) Justin: Apol. 2: 12, 13.

(9) يوسابيوس 8: 7.

(10) De Pressensé Vol. 2, ch. 2.

وقتذاك. يقول يوستينوس الشهيد الفيلسوف: لا شئ يستطيع أن يحولنا عن ايماننا. لا سيف القاتل، ولا صليب الضيق، لا أنياب الوحوش الضارية، ولا القيود، ولا النار، ولا العذاب بأى نوع بقدر ما يزيدوا آلامنا بقدر ما يزداد عدد المؤمنين، وبقدر ما يزداد عدد التلاميذ الذين ينحازون الى جانب المسيح"(11).

وفى اجابات المعترفين المسيحيين أمام الحكام ما يكشف عن عظم الشجاعة، التى لا ترهب الموت مقابل الصدق والحق(12). وقف شاب يدعى أخاتيوس **Achatius** فى أزمير أمام حاكمها- زمان اضطهاد ديسيوس ليحاكم بتهمة المسيحية، قال للحاكم أنه لن يقرب القربان للامبراطور، لان القربان لا يرفع لمخلوق. وحين قال له الحاكم "إما تقديم القربان وإما الموت"، كان جوابه: "أن هذا أسلوب قطاع الطرق، فهم يخيرون المسافرين، بين تسليم نقودهم أو الموت"(13).

وفى ألوان التعذيب الذى احتملوه- والتى مجرد ذكرها يرعب الانسان- ما يدل على عظم شجاعة هؤلاء الشهداء. والمؤرخ المدقق لكى **Lecky**، بعد أن يعدد أنواع التعذيب المرعبة التى احتملها المسيحيون، يقول: "بين السجلات الصحيحة للاضطهادات الوثنية، هناك قصص تظهر بجلاء مدى عمق القسوة التى يمكن أن تنحط اليها الطبيعة البشرية، والمقاومة البطولية التى تبلغها.. من أجل محبة هؤلاء لسيدهم القدوس, ومن أجل ايمانهم، وحتى يظلوا أمناء، إحتمل الرجال وحتى الفتيات الصغيرات كل هذه الآلام دون أن يجفلوا أو ينثنوا بينما كانت كلمة واحد منهم كافية لاطلاقهم وتخليصهم من كل هذه العذابات"(14).

الاستشهاد كــرازة

دماء الشهداء بذار الكنيسة:

هذه العبارة المشهورة قالها العلامة ترتليانوس، الذى عاش وسط الاضطهادات، فى النصف الاخير من القرن الثانى، وكان من أكبر المتحمسين للاستشهاد... ولقد أثبتت الايام والسنين والاحداث صحة هذا القول.... وقد قال أيضا موجها كلامه الى الحكام الوثنين: "استمروا فى تعذيبنا، أصحنوننا الى مسحوق، فان اعدادنا تتزايد بقدر ما تحصدوننا! ان دماء المسيحيين لهى بذار محصولهم. ان عنادكم هو فى ذاته معلم لأنه من ذا الذى لا يتحرك بالتأمل فيما تعملونه ليستعلم عن حقيقة الأمر. ومن ذا الذى بعد انضمامه الينا لا يشتاق الى التألم؟!".

ان الاستشهاد بنتائجه برهان عملى لقول رب المجد: "ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت، فهى تبقى وحدها، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير". (يو12:24)... هذا

---

(11) Justin: Dialogue with Trypho .

(12) انظر فصل محاكمات الشهداء وأحاديثهم الخالدة.

(13) Mason: The Historic Martyrs of the Primitive Church.

(14) Lecky :History of European Morals, Vol. 1.

ما نراه عمليا، فحبة واحدة من الحنطة تدفن فى التربة، تأتى بسنابل مملوءة ثلاثين وستين ومائة... هكذا الكرمة أيضا التى تُقلم تعطى ثمراً اكثر. وهو نفس المعنى الذى أراده رب المجد بقوله "أنا الكرمة الحقيقية وأبى الكرام. كل غصن فىّ لا يأتى بثمر ينزعه. وكل ما يأتى بثمر ينقيه ليأتى بثمر اكثر" (يو15: 1،2).

وفى ذلك يقول يوستينوس الشهيد فى دفاعه: "ها أنت تستطيع أن ترى بوضوح أنه حينما تقطع رؤوسنا، ونصلب، ونلقى للوحوش المفترسة، ونقيد بالسلاسل، ونلقى فى النار وكل أنواع التعذيب، أننا لا نترك ايماننا. بل بقدر ما نعاقب بهذه الضيقات، بقدر ما ينضم مسيحيون أكثر الى ايماننا وديانتنا باسم يسوع المسيح. ان الكرام يقطع أغصان الكرمة التى تحمل ثمارا، حتى تنمو أغصان اخرى. وهذا يصيرها أكثر حيوية وأكثر اثمارا. وهذا ما يحدث معنا. فالكرمة التى غرست بواسطة الله مخلصنا يسوع المسيح، هى شعبه".

والعجيب أن الرب يسوع أرسل تلاميذه كحملان بين ذئاب (لو 10:3)!!.. كيف هذا.. ألا يخشى الله أن تفتك الذئاب بالحملان؟ كلا, انها لا تفتك بها، بل ان ما يحدث هو العكس فالحملان تحول الذئاب الى حملان مثلها.

يقول القديس اغسطينوس: "تأملوا يا أخوتى ماذا يفعل يسوع... ان ذئبا واحدا لو ألقى بين غنم كثيرة ولو بلغوا عدة آلاف، لارتعب القطيع كله على الرغم من عدم قدرة الذئب على افتراس الكل، لكن الكل يخافونه... فأى مشورة، واى تدبير، وأية قوة هذه، حتى لا يبث الله ذئبا وسط الغنم، بل يرسل غنما وسط الذئاب!! انه لا يقترب بهم نحو الذئاب، بل فى وسط الذئاب.. لقد كان هناك قطيع من الذئاب وقلة من الغنم، فعندما افترست الذئاب الكثيرة الغنمات القليلة تحولت الذئاب الى غنم.

لقد آمن كثيرون بسبب آلام الشهداء وموتهم، بما صاحب استشهادهم من معجزات، وما اظهروه من ثبات واحتمال وصبر.. ولقد أوردنا كثيرا من هذه الامثلة، وسجل الشهداء حافل بقصص الايمان... وقد لا أكون مبالغا إن قلت، ان الايمان المسيحى انتشر باستشهاد القديسين، أكثر مما انتشر بتعليم المبشرين... فالدماء روت بذار الايمان فصارت دوحات عظيمة، استظل بها كثيرون...

لقد كسب المسيحيون الأوائل للمسيح كثيرين، وقد نالوا هذا الكسب بموتهم اكثر مما نالوه بحياتهم أو معجزاتهم. وكما ينمو الحشيش اكثر كلما يجز، هكذا المسيحيون كانوا ينهضون بقوة جديدة كلما كانوا يحصدون[15].

الاستشهاد برهان عملى على صدق الديانة المسيحية

يقول المؤرخ الكبير شاف Schaff "نحن لا نعرف ديانة اخرى استطاعت ان

---

(15) Waston: Defenders of the faith
Tertullianus: Ad Scapulam, ch. 5
Justin: Apol. 2: 12, 13; Tert. Apol, ch. 50.

تصمد لفترة طويلة- ثلاثة قرون تقريبا- فى مقاومة متصلة من التعصب اليهودى، والفلسفة الاغريقية، والسياسة الرومانية وقوتها. ما من ديانة اخرى كان يمكنها أن تنتصر فى النهاية على اعداء كثيرين، بالقوة الادبية الروحية وحدها, ودون الاستعانة بأية وسائل مادية لمساندتها"[16].

اليس فى هذا اتمام لأقوال الرب يسوع ومواعيده التى سلمها لتلاميذه "يلقون أيديهم عليكم، ويطردونكم ويسلمونكم الى مجامع وسجون، وتساقون امام ملوك وولاة لأجل اسمي، فيؤول ذلك لكم شهادة. فضعوا فى قلوبكم أن لا تهتموا من قبل لكى تحتجوا. لأنى اعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها. وسوف تسلمون من الوالدين،والاخوة والأقرباء، ويقتلون منكم. وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى" (لو21: 12-17).. ألم يتم كل هذا حرفيا؟.
ان حوادث الاستشهاد مليئة بالأمثلة التى أوردناها كعينات على ذلك... أما النصرة النهائية فهى اتمام لوعده: "فى العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو16:33).

هكذا رأينا فى سير الشهداء ان المسيح نفسه كان يظهر لبعض الشهداء، سواء بشخصه، أو بواسطة ملائكته، أو قديسيه، يعزى هؤلاء الشهداء ويقويهم... هكذا خرجت الكنيسة منتصرة فى النهاية بعد حرب ضروس، خاضت معاركها اتمام ا لقوله: "كل آلة صورت ضدك لا تنجح. وكل لسان يقوم عليك فى القضاء تحكمين عليه" (أش54:17).

كيف يمكن تعليل المعجزات التى حدثت وقت تعذيب الشهداء؟.. كيف يعود الانسان سليما معافى بعد تقطيع أعضائه، وتهرؤ لحمه؟ كيف تتخلى الوحوش الضارية الجائعة عن طبيعتها فلا تمس الشهداء ولا تقربهم؟! كيف يفقد السم تأثيره على شهداء المسيح ولا يضرهم؟

كيف يحدث هذا، الا اذا كان ذلك اتماماً لكلمات رب المجد: "ها أنا أعطيكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو، ولا يضركم شئ" (لو 10 : 19).. "وهذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون الشياطين باسمى يحملون حيات. وان شربوا شيئا مميتا لا يضرهم..." (مر16 :17،18).

الاستشهاد برهان عملى على الفضائل المسيحية

كما تختبر المعادن بالنار، كذلك تختبر الفضائل بالآلام والضيقات... كانت الاضطهادات العنيفة التى قاستها المسيحية، برهاناً على أصالة فضائلها فقد يتكلم الانسان كثيراً عن الفضائل لكن هذا لا يعنى أنه إنسان فاضل، إلا إذا برهن على الفضيلة عمليا بحياته، وبخاصة فى محنة آلامه. وقد اثبت الاستشهاد أصالة الفضائل

---

(16) Schaff, vol. 2, p. 77.

التى نادت بها المسيحية، متجسدة فى اشخاص الشهداء، الذين لم تستطع الآلام المبرحة ان تجعلهم يتخلون عنها وكبرهان على ذلك، نستعرض بعض الفضائل:

الثبات والاحتمال:

يقول العلامة ترتليانوس فى خاتمة دفاعه، موجها كلامة الى حكام الامبراطورية الرومانية وقضاتها "كثيرون من كتابكم يحثون على التشجيع فى احتمال الالالم والموت. ومن أمثالهم شيشرون وسينكا وديوجنيس، وبيرهوس، وكلنيكوس. ومع ذلك لا تجد كلماتهم أتباعا كثيرين، على نحو ما تجد المسيحية. فالمعلمون ليسوا بكلماتهم، بل بأعمالهم.

وهذه الصلابة التى تعيرونها هى تعلمكم. لانه من ذا الذى يتأملها ولا يتحرك ليستفسر ما هى نهايتها؟ ومن ذا الذى بعد أن يستفسر لا يعتنق مبادئنا؟ وبعد أن يعتنقها، لا يشتاق الى التألم حتى ما يصير شريكا لكمال نعمة الله؟!".

الوداعـــة:

لقد أثبت المعترفون والشهداء بلا استثناء وداعتهم مقابل أعدائهم.. لم يثوروا ولم يتمردوا ومنهم الجنود والقواد والحكام... كان يمكنهم أن يفعلوا شيئا لكنهم لم يفعلوا... وكانت أعدادهم ضخمة كافية لاثارة شغب.

وعلى سبيل المثال نذكر الكتيبة الطيبية التى كانت تضم أكثر من ستة آلاف جنديا، واستشهد افرادها عن آخرهم. لقد قالوا فى رسالة وقعوها ورفعوها الى الامبراطور مكسيميانوس: "أيها القيصر العظيم اننا جنودك، لكن فى الوقت نفسه عبيد الله... لسنا ثوارا، فالاسلحة لدينا، وبها نستطيع ان ندافع عن أنفسنا ونعصاك، لكننا نفضل أن نموت أبرياء، على أن نعيش ملوثين. ونحن على أتم استعداد، أن نتحمل كل ما تصبه علينا من أنواع التعذيب، لأننا مسيحيون، ونعلن مسيحيتنا جهارا...".

محبة الاعـــداء:

أما عن محبتهم لاعدائهم فهى واضحة كل الوضوح.. كانوا يحبونهم ويصلون لاجلهم، اتماما لوصية معلمهم: "أحبوا أعداءكم، أحسنوا الى مبغضيكم... وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم" (لو 6:27،28)... لقد أتم المسيحيون هذه الفضيلة ككنيسة وكأفراد.. فاستفانوس أول شهداء المسيحية، بينما كانوا يرجمونه جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم: "يارب لا تقم لهم هذه الخطية" (أع7: 60).

وقد أورد لنا يوسابيوس المؤرخ قصة شهيد فى قيصرية يدعى بولس. هذا طلب مهلة وجيزة بينما كان الجلاد على وشك قطع رأسه. ثم رفع صوته مصليا من أجل زملائه المسيحين، ومن أجل اهتداء اليهود، والامم الذين يعيشون فى الضلال، ومن أجل الجماهير الواقفة حوله، وتوسل من أجل القاضى الذى حكم عليه بالموت، ومن أجل الحكام. وكذا من أجل الشخص الذى كان مزمعا أن يقطع رأسه، طالبا أن لا تحسب

عليهم خطيتهم من نحوه[18].

وفى خبر استشهاد القديسة صوفية [19]، ان الوالى عذبها عذابا شديدا بضربها بأعصاب البقر وكوى مفاصلها وقطع لسانها لأنها كانت تصيح تحت الآلام وتقول "أنا مسيحية" وقبيل أن تقطع رأسها، صلت الى الله صلاة طويلة، وسألته أن يسامح الوالى وجنده بما فعلوه معها، ثم أحنت عنقها للسياف.

ولم يتردد الشهداء فى أن يظهروا حبهم لمعذبيهم ومضطهديهم عمليا.

فالقديسان قزمان ودميان، صليا لاجل الوالى الذى اعتراه روح نجس بسبب تعذيبه للشهداء، فشفى للوقت والقديس أبيما شفى أرمانيوس والى الاسكندرية الذى أذاقه ألوانا من العذاب. شفاه من صمم وعمى، كان قد أصيب بهما قصاصا لتجديفه على الرب والقديس أباكلوج القس أقام ابن أريانوس الوالى بعد أن مات.

العفة والطهارة:

أما عن فضيلة العفة والطهارة، فقد كانت واضحة كل الوضوح فى حياة الشهداء، بل أظهروا تمسكم بها حتى الموت. ومن أمثلة ذلك العذارى العفيفات بوتامينا وثيؤدورة وفبرونيا.

الزهد فى العالميات:

وقد باعدوا بينهم، وبين محبة العالميات فى أية صورة من صورها.. فلقد صودرت أموالهم وممتلكاتهم وفصلوا من وظائفهم، ومن مشاركة الحياة العامة، وحتى الحمامات العامة, منعوا من استخدامها... والبعض عاشوا بعيدا عن الاعين كالذين عاشوا فى سراديب روما السحيقة ... وقد فعلوا كل ذلك عن اختيار ودوافع شخصية عملا بالمبادئ التى آمنوا بها...

الشوق الى السماويات:

وبقدر ما زهد المسيحيون فى العالميات، بقدر ما اشتاقوا الى السماويات. لقد عاشوا فى العالم، لكن تطلعهم الدائم كان نحو السماء وامجادها... عاشوا فى الجسد وكأنهم أرواح بلا أجساد.. لقد جعلوا كنزهم فى السماء، ولذا كانت قلوبهم هناك... لقد أثبتوا عمليا صدق الرب: "لستم من العالم" (يو15: 19)...

ولقد أورد لنا يوسابيوس المؤرخ قصة عجيبة توضح هذا الامر.. مثل خمسة شهداء مصريين أمام القضاء فى مدينة قيصيرية بفلسطين، بتهمة مرافقة المعترفين الذين يعملون فى مناجم كيليكية وتشجيعهم. ولما سئلوا عن اسمائهم لم يذكروا أسماءهم

---

(18) يوسابيوس: شهداء فلسطين 8:9- 12.
(19) سنكسار 5 توت.

الحقيقية، بل ذكروا أسماء من الانبياء، لان أسماءهم الحقيقية كانت أسماء وثنية, أطلقها عليهم آبائهم. فأطلقوا على أنفسهم أسماء ايليا، وأرميا, وأشعياء, وصموئيل, ودانيال....

ولما سئل أحدهم عن وطنه أجاب "أورشليم" وكان يعنى أورشليم السمائية التى قال عنها الرسول بولس انها "أمنا جميعا" (غل4: 26).

ولما كان القاضى لا يعرف مدينة بهذا الاسم [24]، أمر بتعذيبه، لكنه أكد أنه لم يتكلم سوى الصدق.. واذ سئل مرارا عن المدينة التى تحدث عنها، قال أنها وطن الاتقياء فقط.. ويقول يوسابيوس "وقد تحدث عن هذه الامور، بفلسفة وفوق ادراكه. ولم يستطيعوا أن يزحزحوه قيد شعرة بالتعذيبات... ولم تظهر عليه علامات الشعور بالآلام، كأنه لم يكن له لحم وجسم. واذ تحير القاضى، لم يطق صبرا، ظانا أن المسيحيين مزمعون أن يؤسسوا مدينة فى مكان ما، معادية للرومان. فأستعلم كثيرا عن هذا.. ولما وجد أنه لم يتزحزح عن أصراره، حكم عليه بالموت... وبعد تعذيب الباقين تعذيبا مماثلا، تصرف معهم بنفس الكيفية"[25].

---

(24) كان اسم أورشليم قد عفت عليه السنون منذ زمان، بعد ثورة باركوكبا فى عهد الامبراطور تراجان، الذى أسس فى مكانها مستعمرة آيليا كابيتولينا.

(25) يوسابيوس: شهداء فلسطين ف 11.